الفصل الرابع عشر

ابن رشيق القيرواني والنظرة المتكاملة الى الشعر

يبدو كتاب العمدة اثراً مهماً من آثار المكتبة النقدية وقد نال حظوة وشهرة كبيرتين وتداوله الادباء والنقاد وعد من الكتب التي لاغنى عنها لطالب العلم والادب .

لقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة بين الادباء والنقاد القدماء والمحدثين واثنوا عليه ثناء حسناً . فقد اطلع الصفدي على مؤلفات ابن رشيق فرأى انها تدل على تبحره في الادب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحرة في النقد(١) . ويبرز كتاب العمدة من بين هذه الكتب التي وصفها الصفدي والتي تدل على تضلعه في الادب والنقد .

ويقول فيه القفطي انه اشتمل على مالم يشتمل عليه تصنيف من نوعه واحسن فيه غاية الإحسان(٢) .

---

(١) الوافي بالوفيات / الصفدي ٢ / ٢٥٢
(٢) انباه الرواة ١ / ٣٣

اما المحدثون فقد اختلفوا في اهمية الاراء النقدية الواردة في هذا الكتاب. فيرى احسان عباس ان حظ ابن رشيق في الاصالة النقدية ضئيل. لكنه مع ذلك ناقد قدير لم تضع شخصيته بين آراء عبد الكريم ـ استاذه ـ وابن سلام الجمحي وابن وكيع والرماني ودعبل والجرجاني والمرزوقي. ولعل ابن رشيق ابرز مثل على الناقد الذي يملك الاعجاب عن طريق الجدة في الرأي. وفضلاً عن ذلك يمتاز كتابه من بين كتب النقد الادبي بأنه احتوى اكثر مايريده المتأدب من حديث عن الشعر ومن حديث في الشعر نفسه(٣).

ويرى د. داود سلوم ان شخصية الكاتب تكاد تختفي خلف النصوص الكثيرة المقتبسة والاقوال القديمة المكرورة وما قد يعتبره الناقد القيرواني من بنات افكاره ان هو الاحصيلة ثقافته العامة من افكار الاخرين والتي شكلت وجهة نظره في الموضوع النقدي(٤).

وهناك من اتخذ الموقف الوسط من آراء ابن رشيق فقد عقد محمد سلامة يوسف فصلاً عن تأثر ابن رشيق بمن سبقه من النقاد(٥) ملخصاً رأيه بقوله (يتضح لنا ان ابن رشيق لم يكن ينقل عمن سبقه نقلاً او ينقدها بل كان يناقش ماينقل ويقبل منها مايقبل ويرفض مايرفض صادراً في ذلك عن دقة بصر بالنقد. وثقوب نظر وبيان لوجهة نظر ومذهبه فيما يأخذ او يدع)(٦).

ان استعراض الاراء النقدية في العمدة يدلنا على انه قد استوعب فعلاً آراء من سبقه من النقاد. ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل انه يتبنى الرأي النقدي ويفصل فيه اذا اقتنع به. ويأتي بالامثلة والشواهد التي تعينه حتى تبرز الفكرة وكأنك تقرأها اول مرة لوضوح الحجة. وبيان الشرح والرأي وسنحاول الوقوف على اهم الجوانب المتعلقة بنظرة ابن رشيق المتكاملة الى الشعر.

لقد سمى ابن رشيق كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) وبذا دل على طبيعة المادة التي يتناولها كتابه والتي تصح ان نقول عنها انها تمثل نظرة متكاملة الى الشعر من حيث تعريفه وفضله وميزاته على النثر. ثم مهمة الشاعر وما يتبع ذلك من مكانة في الاعصر المختلفة والثقافة التي يحتاج اليها. وما يتعلق

---

(٣) تاريخ النقد ٤٤٥، ٤٤٦

(٤) مقالات في تاريخ النقد ٣٦٤

(٥) ابن رشيق القيرواني وآراؤه البيانية والنقدية ٢٠٩ / ٢٢٨

(٦) نفسه.

بالمحاسن التي تستجاد من الاشعار . وما يقابلها من مساوىء . كل ذلك ليدل على اداب الشعر واصول نقده وتمييزه ..

دفاعه عن الشعر :

قبل ان يبدأ ابن رشيق حديثه المباشر عن الشعر وما يتعلق بآدابه ونقده يبدأ كتابه بفصول وفقرات فيها دفاع عن الشعر وكأنه يقدم سوغاً لتخصص كتابه بهذا الموضوع او ليبين فضل انفراد كتابه بصنعه الشعر بخلاف ابي هلال العسكري الذي خص كتابه للنثر والشعر(٧) .

فكلام العرب نوعان منظوم ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات . جيدة . متوسطة ورديئة . فاذا اتفقت الطبقتان في القدر . وتساوتا في القيمة . ولم يكن لاحدهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية لان كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة(٨) .

وبذا يصدر ابن رشيق حكماً عاماً في تفضيل الشعر على النثر ويضرب لصفة الشعر مثلاً بما تعارف عليه النقاد من قبل وهو ان الشعر كالصنعه الحاذقة فالدر وهو اخو اللفظ ونسيبة اليه يقاس وبه يشبه اذا كان منثوراً لم يؤمن عليه . ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن اجله انتخب وان كان اعلى قدراً . واغلى ثمناً . فاذا نظم كان اسون له من الابتذال . واظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال وكذلك اللفظ اذا كان منثوراً تبدد في الاسماع وتدحرج عن الطباع(٩) .

اما سبب تفضيله الشعر على النثر فلسرعة تأثيره في النفوس لما يقتضيه الوزن من جرس موسيقي . وجمال فني يؤهلانه للصوق في نفوس السامعين وحفظه وتداوله فضلاً عن مباحث عديدة تعد فضائل للشعر والشعراء . ودافع ابن رشيق من خلالها عن الشعر ومكانه ونستطيع ان ندرجها بما يلي :-

١ . مسألة تنزيه القرآن الكريم عن ان يكون شعراً . وتنزيه الرسول (ص) عن ان يكون شاعراً(١٠) فصل فيها ابن رشيق القول وهي وان كانت من القضايا التي كثرت فيها الاقوال وناقشها المفسرون والادباء الا ان ابن رشيق اكسبها جدة

---

(٧) اسم كتاب ابي هلال العسكري(الصناعتين)
(٨) العمدة ـ ١٩
(٩) المصدر نفسه
(١٠) يراجع الفصل الثاني ـ النقد في صدر الاسلام

وحيوية لحسن دفاعه عن الشعر فاذا كان تنزيه الرسول (ص) عن قول الشعر حطا لمكانة الشعراء كانت امنيته ايضاً غضا من الكتابة(١١) . وكقوله معقباً على الاحاديث الشريفة التي شجع فيها الرسول (ص) شعراء الدعوة متخذاً منها دفاعاً قوياً عن الشعر والشعراء يقول (فلو ان الشعر حرام او مكروه ما اتخذ النبي (ص) شعراء يحثهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منهم(١٢) .

٢ . من فضائل الشعر ان الكذب الذي اجمع الناس على قبحه حسن فيه وحسبك ماحسن الكذب . واغتفر له قبحه فقد سئل احد المتقدمين عن الشعراء فقال ، (ماظنك بقوم الاقتصاد محدد الامنهم . والكذب مذموم الا فيهم(١٣) .

٣ . قيام الشعر بمهمة الدفاع عن الشاعر حتى في حالة كونه مذنباً ويضرب لهذا مثلاً عفو الرسول (ص) عن كعب بن زهير بعد ان كان تهدده ووعده وما كان ليوعده على باطل . بل تجاوز عنه ووهب له بردته(١٤) واعتذر حسان بن ثابت عن قوله في الافك بقوله لعائشة (رض) في ابيات مدحها بها ، ـ

حصان رزان ماتزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

ثم قال ،

فأن الذي قد قيل ليس بلائط
ولكنه قول امرىء بي ماحل

فاعتذر كما تراه مغالطاً في شيء نفذ فيه حكم رسول الله (ص) بالحد وزعم ان ذلك قول امرىء ماحل اي مكايد . فلم يعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر وانه يحتج به ولا يحتج عليه(١٥) .

---

(١١) العمدة ١/ ٢١
(١٢) نفسه ١/ ٢١
(١٣) نفسه ١/ ٢٥
(١٤) نفسه ٢٤
(١٥) بلائط . اي ليس بلازم ولا لصق . والماحل الذي يمشي بالنميمة ويسعى الى السلطات

٤ . ليس لاحد ان يطرى نفسه ويمدحها في غير منافرة الا ان يكون شاعراً فأن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه .

٥ . الشعر معيار الاوزان وقد نقلا رأياً في هذا بقوله، فقد زعم صاحب الموسيقى ان الذ. الملاذ كلها اللحن . ونحن نعلم ان الاوزان قواعد الالحان والاشعار معايير الاوتار لامحالة . مع ان صنعة صاحب الالحان واضعة من قدره مستخدمة له نازلة به ورتبة الشاعر لامهانة فيها عليه بل تكسبه مهابة العلم وتكسوه جلالة الحكمة . وقد يعترض على ابن رشيق معترض من خلال دفاعه عن الشاعر ومقارنته بصاحب الالحان بما عرف من عرف اجتماعي وهو وقوف الشاعر ساعة انشاده القصيدة وجلوس الملحن او الموسيقي . يتخذ ابن رشيق من هذا الافتراض وسيلة للدفاع عن الشعر ايضاً فيرى ان قيام الشاعر وجلوس صاحب اللحون موقوف على كون الشاعر متشوقاً اليه بحب اسماع من بحضرته اجمعين بغير الة ولا معين ولا يمكنه ذلك الا قائماً او مشرفاً . وليدل على نفسه . ويعلم انه المتكلم دون غيره وكذلك الخطيب وصاحب اللحون لا يمكنه القيام لما في حجره كرامة منه على القوم على ان منهم من كان يقوم بالدف والزهر(١٦) .

٦ . مكانة الشعر العظيمة في عصر الرسول (ص) ودوره الكبير في الدفاع عن الدعوة الاسلامية مكثر في هذا الباب من الروايات الدالة على اعجاب الرسول (ص) والصحابة بالشعر والشعراء مما قد ذكرنا معظمه في الفصل الخاص بالنقد في العصر الاسلامي .

٧ . تعاطي الصحابة وكبار الخلفاء والفقهاء والتابعين الشعر . ولم يحط هذا من قدرهم بل اضاف اليهم عزا الى عز . وشهرة الى شهرة وقد عقد لهذا باباً في اشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء مضيفاً الى الروايات المعروفة التي ذكرها استنتاجاً لطيفاً بشأن مشروعية قول الشعر والاستئناس به بقوله ،

(وقد كان جماعة من اصحاب مالك بن انس يرون الغناء بغير آلة جائز وهو مذهب جماعة من اهل مكة والمدينة . والغناء حلة الشعر ان لم يلبسها طويت ومحال ان يحرم الشعر من يحل الغناء به(١٧) .

(١٦) العمدة ١ / ٢٦
(١٧) نفسه ١ / ٣٢

٨ . ان ماذكر من نفي والد امرىء القيس لابنه بسبب الشعر انما هو وهم وخطأ فقد غفل اكثر الناس عن السبب وذلك انه كان خليعاً متهتكاً شيب بناء ابيه . وبدا بهذا الشر العظيم واشتغل بالخمر .. عن الملك والرياسة فكان اليه من ابيه ماكان ليس من جهة الشعر لكن من جهة الغي والبطالة فهذه العلة وقد جازت كثيراً في الناس ومرت عليهم صفحاً(١٨) .

٩ . تظهر مكانة الشاعر في المجتمع العربي في كثرة الشعراء الذين رفعوا من اقدار اقوام باشعارهم او حطوا من اقدار اخرين لابيات سارت بين الناس واشتهرت .

١٠ . شفاعات الشعراء لدى الحكام ورؤساء القبائل وقبولهم العفو بسبب ابيات تستثير هممهم وعطفهم . ويضرب لهذا مثلاً قصة اسر شاس بن عبدة في تبيعين رجلاً من تميم وشفاعة علقمة الفحل لدى الحادرث الغساني . قبول الاخير هذه الشفاعة واطلاقه سراح شاس وجماعته بسبب ابيات لعلقمة . اثارت ابيات لامية بن حرثان عاطفة الخليفة عمر بن الخطاب حين سمع بها فأمر باعادة ولد امية لما اثارته هذه الابيات من عاطفة الرحمة والرأفة الاب الشاعر الذي استعطف الخليفة ليرد اليه ولده المنخرط مع جيوش الفاتحين(١٩) .

١١ . احتماء القبائل بشعرائها فقد كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يضعون في الاعراس . ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمأثرهم . واشادة بذكرهم . فممن حمى قبيلته زياد الاعجم وذلك ان الفرزدق هم بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً وهو منهم فبعث اليه ، لاتعجل وانا مهد اليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده ،

فما ترك الهاجون لي ان هجوته
مصحاً اراه في اديم الفرزدق
ولا تركوا عظما يرى تحت لحمه
لكاسره أبقوه للمتعرق

---

(١٨) نفسه
(١٩) نفسه

ساكسر ما ابقوا له من عظامه
وانكت مخ الساق منه وانتقي

فلما بلغته الابيات كف عما اراد وقال لاسبيل الى هجاء هؤلاء ماعاش هذا العبد(٢٠) . ويستطرد لذكر روايات كثيرة في هذا الشأن .

١٢ . تفاؤل الناس بالشعر وبصورة بأبيات مشهورة لحسان بن ثابت يتهدد فيها قريشاً بفتح مكة والنصر على المشركين وان هذه الابيات تفاءل بها المسلمون واستنشدوها حين فتح الله لهم مكة(٢١) .

١٣ . للشعر منافع كثيرة قد اكثر الناس ذكرها . واذا كان ابن رشيق شغوفا بذكر المنافع فأنه يرى ذكر المضار غير منتقص للشعر ولا مقللاً من شأنه فما اورده عن الصحابة والتابعين ان الشعر كلام يحسن فيه مايحسن في الكلام . ويقبح فيه مايقبح في الكلام وبقدر حسن وقبحه يكون نفعه وضره على ان مضار الاشعار التي ذكرها لاتتجاوز . مساوىء اختيار الشعراء لمعانيهم واخفاقهم في رسم صورها سواء مخالفتها لطبيعة الموضوع الذي يتحدد عنه . كأن يدعو لنفسه بأن يبتلى ببلية كما فعل مجنون ليلى حين قال :

قضاها لغيري وابتلاني بحبها
فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

فما مات حتى مرض ورأى في المنام قائلاً يقول له ، هذا ماتمنيت وقد تكون الاساءة في اقحام الشاعر نفسه في مواقف مهلكة . وهو موضوع جر ابن رشيق الى الحديث عن علاقة الاشعار بالسياسة وذوي الحكم . فقد علق على خبر سديف بن ميمون وكيف اهلكته اشعاره التي صرح فيها برغبته في ان تزول الخلافة عن بني العباس لتؤول الى بني الحسن(٢٢) ليصدر بعد هذا الخبر رأياً نقدياً هو نتيجة للاحداث السياسية العنيفة التي راح الشعراء ضحيتها حين اقحموا انفسهم في اتونها قائلاً : (واحمق الشعراء عند من ادخل نفسه في هذا الباب او تعرض له . وما للشاعر والتعرض للحقوق وانما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله لاسيما وانما هو

---

(٢٠) نفسه ٤٩
(٢١) نفسه ٧٧
(٢٢) نفسه ٧٥

رأسه وكل شيء يحتمل الا الطعن في الدول فأن دعت الى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو في ملكه وتحت سلطانه اصوب واعذر له من كل جهة وعلى كل حال لاكما فعل سديف ولعل لابن رشيق عذره في هذا التعطيل لدور الشاعر المقترض فيه ان يكون بناء وناقداً لامنافقا مدارياً . لعل عذره كثرة الشواهد التي قرأها وشهد احداثها عن شعراء لقوا حتوفهم بسبب شعر قالوه او تعرضوا فيه لخليفة أوسلطان(٢٣) وهو وان جعله طالب فضل تعليقاً على حادثة معينة الاانه افرد بعده بابا عن التكسب بالشعر والانفة منه ورأى ان اكثر ماتقدم من الشعراء فالغالب على طابعهم الانفة عن السؤال بالشعر . وقلة التعرض به لما في ايدي الناس الا في مالا يزرى بقدر ولامروءة كالفلقة النادرة . والمهمة المظيمة وعلى كل حال فأن الاخذ من الملوك كما فعل النابغة ومن الرؤساء الجلة كما فعل زهير سهل وخفيف(٢٤) .

١٤. تعرض الشعراء للناس واجباتهم التي قد تسير مثلاً فتخزى المتعرض لهم ولذلك كان الاشراف يتجنبون ممازحة الشعراء ولكن ابن رشيق بعد ايراده للروايات الطريفة التي تحكي تعرض الشعراء لاناس بدأوا بممازحتهم او ملاحاتهم ختم الباب برأي تقدي عن مواقف الشعراء التي ذكرها مفاده انه يربأ بالشاعر ان يتعرض لاعراض الناس فهو اولى بالكف عن مثل هذه المواقف واقالة عثرات اللسان لانه رزق من القدرة على الكلام والعفو من القادر احسن به واليق (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق . اولئك لهم عذاب اليم . . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) وهكذا يجعل هذا الباب من مفاخر الشعر والشعراء .

القدماء والمحدثون :

ليس لابن رشيق في هذه المسألة موقف خاص قدر فهمه لمواقف من سبقه . وتبنيه لرأي يوافق فيه من ذهب الى وجوب العدل في الحكم بين القدماء والمحدثين مفتتحاً حديثه بمقولة ابن قتيبة : (كل قديم من الشعراء فهو محدث

---

(٢٣) نفسه ٧٥

(٢٤) نفسه ٦٨

في زمانه(٢٥) . مورداً الروايات التي تعصب فيها كبار الرواة للشعر القديم . ويرى ان امثال هؤلاء موجودون في كل عصر يعني ان كل واحد منهم يدهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الالحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة)(٢٦) .

وعلى هذا يرى ابن رشيق ان ليس لاحد الحق بالكلام دون احد . وانما الاجادة هي التي تعلي شأن الشاعر لازمانه او مكانه الا ان المثل الذي يضربه لتوضيح حال القدماء والمحدثين يبدو متناقضاً مع آرائه التي اتسمت بالجدة والتي تبنى فيها آراء غيره من النقاد الداعين الى انصاف المحدث فيقول :

(انما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدءا هذا بناء فأحكمه واتقنه ثم اتى الاخر فنقشه وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وان حسن)(٢٧) فهو يرى في هذا النص ان الفضل للقدماء يتجلى في احكام صنعة الشعر وانهم مطبوعون غير متكلفين اما المحدثون فالافضل لهم الا التزيين والتجميل في صنعة الشعر والتأنق في اختيار الالفاظ والصور الفنية .

ويقول في باب الشعر والشعراء بعد ان قسم الشعراء الى طبقات :
(فليعلم المتأخر مقدار مابقي له من الشعر . فيتصفح مقدار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي . وبين الاسلامي والمخضرم وان المحدث الاول ـ فضلاً عمن دونه ـ دونهم في المنزلة على انه اغمض مسلكاً وارق حاشية . فاذا رأى انه ساقة الساقة تحفظ على نفسه وعلم من اين يؤتي ولم تفزره حلاوة لفظه . ولا رشاقة معناه ففي الجاهلية والاسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة(٢٨)

ورأى ابن رشيق في هذين النصين مع الشعر اذا قدم فالجودة والطبع والصحة مقرونة بالشعر القديم متناقصة بتقدم العهد . فأين يكون هذا الرأي مع آرائه الاخرى التي حاول فيها ان يكون ايجابياً من الشعر ـ بصورة عامة ـ قديمة

---

(٢٥) نعى ابن قتيبة كما هو مشهور (ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عصره) الشعر والشعراء ١ / ٢٣

(٢٦) العمدة ١ / ٩١

(٢٧) نفسه ١ / ٩٢

(٢٨) العمدة ١ / ١١٣

وحديثة . وان للجيد يكون في كل زمان ومكان كما يقول الجاحظ وان(٢٩) كل قديم محدث كما قال ابن قتيبة .. هذا موقف .

اما الموقف الثاني فقد اكد فيه موقفاً اخر تبنى فيه رأي استاذه عبد الكريم النهشلي صاحب كتاب الممتع وهو ان المحدثين قد عرفوا بعذوبة الالفاظ ورقتها وحلاوة معانيها وقرب مأخذها وانه لوسلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبه الغريب على اشعارهم ووصف المهامة والقفار ووصف الوحوش والحشرات ما رويت . وان اشعار المحدثين اقرب الى افهام الناس وان خواص الناس في معرفتها كالعوام . وانه لوحدث لمحدث ونظم على طريقة القدماء باختيار الغريب من الالفاظ او الصور البدوية فأن شعره لن يكون ملائماً لعصره . ولن يترك اثراً في نفوس السامعين . ويكون صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب يستميل امة من الناس الى استماعه وان جهل الالحان وكسر الاوزان ـ وقائل الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذق بالنغم غير المطرب المصوت . يعرض عنه الا من عرف فضل صنعته على انه اذا وقف على فضل صنعته لم يصلح لمجالس اللذات . وانما يجعل معلماً للمطربات من القينات . يقمن بخدمته ويستمتع بحلوقهن دون حلقه ليسلمن من الخطأ . ويطرين بحسن اصواتهن(٣٠) .

ثم يستطرد في تبني هذا الرأي وشرحه وينقل قول عبد الكريم النهشلي الذي يرى ان الاشعار تختلف في صورها باختلاف البيئات والازمان . وان ما يستحسن في وقت قد لايستحسن في آخر ويستحسن في اهل بلد مالا يستحسن عند اهل غيره . وان الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد به . وكثر استعماله عند اهله وأنه ربما استعملت في بلد الالفاظ لاتستعمل في غيره .

فالمقياس الذي يجب ان يحكم النظرة الى الاشعار القديمة والمحدثة هو مقياس الجودة الذي يظهر بكون النص الشعري مستساغاً على مر الازمان بعيداً عن الوحشي المستكره مرتفعاً عن المولد المنتحل . متضمناً للمثل السائر . والتشبيه المصيب . والاستعارة الحسنة(٣٣) ويضيف اليه ابن رشيق ايضاً مايوضح فكرة وجوب كون الاشعار خارجة عن نطاق الاقليمية الضيقة غير مقيدة بالمناسبات التي تجعله رهين

---

(٢٩) الحيوان ٢ / ١٣٢
(٣٠) الشعر والشعراء ١ / ٣٣
(٣١) العمدة ١ / ٩٢
(٣٢) نفسه ٩٣

فترة او زمن معين فليس (من اتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لايخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذي لفظه سائر في كل ارض معروف بكل مكان وليس التوليد والرقة ان يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ولا بارداً غثا كما ليست الجزالة والفصاحة ان يكون حوشيا خشنا ولا اعرابياً جافياً ولكن حال بين حالتين ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والاعشى إلاّ بحلاوة الكلام وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة على انهم لو اغربوا لكن ذلك محمولاً عنهم اذ هو طبع من طباعهم(٣٣) .

وهنا يختم ابن رشيق الفصل برأي يخالف مخالفة واضحة المثل الذي ضربه اول حديثنا عن موقفه الاول من الشعر المحدث اذا صح وجاد لان يكون لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ومعرفة الصوائب مع انه ارق حوكا وَاحسن ديباجة .

حد الشعر ودوافعه :

(الشعر يقوم بعد النية من اربعة اشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية) لقد اضاف ابن رشيق الى عناصر الشعر المعروفة الواردة في تعريفات النقاد قبله اضاف شرط النية ليكون الكلام شعراً لان منه ماهو موزون مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن الكريم ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لم يطلق عليه اسم الشعر .

وقد علق على قول الرسول (ص)

هـل أنت الا اصبع دميت
وفـي سـبيل الله مـا لقيـت

بأن قوما رأوا ان مشطور الرجز ليس بشعر كقول الرسول (ص) هذا اما هو فيرى ان ليس هذا بدليل وانما الشرط في عد الكلام شعرا والقصد والنية فقول الرسول (ص) لايعد شعرا اما الرجز فهو شعر لنية اصحاب الشعر في القول .

---

(٣٣) نفسه

واضاف ابن رشيق الى العناصر التي ذكرها قدامة عنصر آخر وهو الابتكار وبذا يميز بين الشعر المنظوم والمتكلف والاخر الجيد المطبوع قائلا (وانما سمي الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لايشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه او استظراف لفظ او ابتداعه او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او صرف معنى الى وجه عن وجه اخر . كان اسم الشاعر عليه مجازا لاحقيقة ولم يكن له الافضل الوزن وليس بفضل عندي مع التقصير) .

فالعنصر المهم الذي اضافه ابن رشيق هنا هو الابتكار والابتداع في المعنى فاذا قصر الشاعر فيهما خرج قوله عن سمة الشاعرية . ولم يحتفظ الا بالوزن الذي لايعده فضلا بحد ذاته اذا لم تتوفر الشروط الاخرى وقوله هذا لايقلل من شأن الوزن . وانما جعل عناصر الشعر مترابطة متلازمة فالقصد في نظم الشعر مع توليد المعاني وابتكارها شرطان يجب ان يتوفرا للقصيدة الشعرية التي اساس بنيتها العناصر الاربعة الوزن . والقافية واللفظ والمعنى . وقد حاول ابن رشيق ـ كعادته ـ ان يضرب مثلا يوضح من خلال اهمية كل عنصر من عناصر بناء القصيدة . فالبيت من الشعر كالبيت من الابنية قراره الطبع . ودعائمه العلم . وبابه الدربة . وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون)(٣٤)

ففي هذا المثل جعل ابن رشيق الطبع اساس العملية . اما الثقافة فهي تسند الشاعر وتقوى قابليته وتمنحه القدرة على الابتداع والابتكار وتأتي الدربة مطبقة للموهبة والثقافة الاصيلة وفي هذا التفصيل لايختلف ابن رشيق عن دعوة ابن طباطبا السابقة في تقدير الموهبة الشعرية ووجوب مصاحبة الثقافة والدربة أوما سماه بصقل الموهبة لها(٣٥) . واما المعاني التي تقوم عليها الاشعار فهي بمثابة البيت الذي يملوءه حيوية وحركة ولولاه كان مهجورا موحشا لافائدة منه .

لقد احتذى ابن رشيق في حديثه عن المعاني والالفاظ حذو ابن قتيبة في تقسيمات الشكلية لاضرب الشعر(٣٦) . فمن الناس من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده ومنهم من يفضل نجلبة الالفاظ وتفخيمها بلا طائل على

---

(٣٤) نفسه ١ / ١٢١

(٣٥) راجع فصل (ابن طباطبا وعملية الابداع الشعري)

(٣٦) راجع الشعر والشعراء ١ / ٢٤ فما بعدها

المعنى . ومنهم من يؤثر سهوله اللفظ ويغتفر للشاعر الركاكة واللين ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته . ولكنه لايقف عند هذه التقسيمات الشكلية وقفة جمود وافتعال وانما نلمح في تفصيلاته وشواهده التي ضربها وتحليلاته النقدية الطريفة نلمح قدرة على تحسس الجمال الفني وموهبة في التحليل والنقد ولنتابع تقسيماته هذه ونظرته الى آراء الناس ومذاهبهم في الالفاظ والمعاني الشعرية .

١ . منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده وهم فرق : قوم يذهبون الى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار ،

اذا ماغضبنا غضبة مضربة
هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما
اذا ما اعرنا سيدا من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما

وهذا النوع ادل على القوة وأشبه بما وقع فيه موضع الافتخار وكذلك مامدح به الملوك يجب ان يكون من هذا النحت .(٣٧)

وفرقة اصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الا القليل النادر كأبي القاسم بن هاني ومن جرى مجراه . وهنا يمارس ابن رشيق النقد التطبيقي في اختيار الانموذج الذي يصور ميل اصحاب هذه الفرقة الى جعجعة الالفاظ وفخامتها دون ان يشترطوا الاصالة او الطبع الذي يمنح الاشعار حيوية وجمالا . وقد اختار بيتين لابن هاني ووقف عندهما وقفة تأمل وتحليل ونقدوهما ،

اصاخت فقالت ، وقع اجرد شيظم
وشامت فقالت ، لمع ابيض مخذم
وما ذعرت الا لجرس حليها
ولا رمقت الايرى في مخدم

---

(٣٧) العمدة ١/ ٢٥ ـ ٢٧

فقد رأى ابن رشيق ان هذين البيتين لم يتوافر فيهما الفساد وخلاف مايطلب من الشاعر التغزل محللا الصورة الشعرية الواردة فيهما ومدى انسجامها مع مايجب ان تكون عليه صورة المرأة المتغزل بها او مع مايطلبه السامع الذي يتوقع من ابيات الغزل اثارة متعة فنية او انفعالات واحاسيس يشارك فيها الشاعر اعجابا او غضبا او تعاطفا وشوقا فيقول ، (فالشاعر بتغزل بامرأة اكثرت من لبس الحلي وهي في انتظار من تحب ، ولكن اتى بصورة متكلفة ثقيلة حيث ظنت ان ماتسمعه من اصوات حليها إنما هو صوت فرس اصيل طويل الجسم او هو صوت سيف قاطع فذعرت ، ثم ان الشاعر قد نبهنا الى ذعرها لم يكن في مكانه لان ماسمعته انما هو جرس حليها وما رأته فهو خلخالها وحليها وبالذي يفيدنا ان تكون المنسوب بها قد لبست حليها فتوهته بعد الاصاخة والرمق ونع فرس او لمع سيف غير انها مغزوة في دارها او جاهلة بما حملته من زينتها ولم يخف عنا مراده انها كانت تترقبه فما هذا كله ؟)[٣٨]

ثم يحلل اسلوب ابن هانيء بصورة عامة فيخرج من نطاق التعليق العابر على بيت او بيتين الى النظرة الشاملة الى اسلوب الشاعر ابن هانيء فهو يراه شاعرا مطبوعا الا انه يتكلف التصنع احيانا وبذا تجد في اشعاره نمطين من الجودة والرداءة ، فاذا اخذ ابن هاني في الحلاوة والرقة وعمل بطبعه وعلى سجيته اشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء واذا تكلف الفخامة وسك طريق الصنعة اضر بنفسه ، واتعب سامع شعره ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الاحاديين اشياء جيدة كقوله في المطبوع .

لايأكل السرحان شلو عقيرهم
مما عليه من القنا المتكسر

اي لم يمت لشجاعته حتى تحطم عليه الرماح مالايصل معه الذئب اليه كثرة ولو كان العقير هو الذي عقروه هم لكان البيت هجوا لانه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحد فهذا كلُّهُ جيد بديع .

٣ . ومنهم من يذهب الى سهولة اللفظ فمتى بها واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط كأبي العتاهية وعباس بن الاحنف ومن تابعهما وهم يرون الغاية قول ابي العتاهية :

---

(٣٨) نفسه ١ / ١٣٥

ياأخوتي ان الهوى قاتلي
فيسروا الاكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى
فأنني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة
بدمعها المنسكب السائل
يامن رأى قبلي قتيلا بكى
من شدة الوجد على القائل
بسطت كفي نحوكم سائلا
ماذا تردون على السائل

فقد ذكر ان ابا العتاهية وابا نؤاس والحسين بن الضحاك الخليع اجتمعوا يوما فقال ابو نؤاس لينشد كل واحد قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء فأنشد ابو العتاهية هذه القصيدة فسلما له . وامتنعا من الانشاد بعده وقالا له ، اما مع سهولة هذه الالفاظ وملاحة هذا القصد وحسن هذه الاشارات فلا ننشد شيئا وذلك في بابه من الغزل الجيد ايضا لايفضله غيره .

ومن هنا جعل ابن رشيق فخامة الالفاظ وجزالتها مع طبع جار مقترنا بالمديح والفخر وجعل رقة الالفاظ وسهولتها مقبولة في الغزل منسجمة مع معانيه . وهو في هذا يظهر مخالفته لرأي ابن قتيبة الذي ذكره في الضرب الثاني من اضرب الشعر الذي عاب فيه ابياتا جميلة في الغزل حسن الفاظها وصورها ـ ولكنه لتزمته ـ رأى ان لاطائل تحتها بينما رأى ابن رشيق ان اسلوب ابي العتاهية هو الاسلوب الجيد في الغزل .

٣ . ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولايبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كأبن الرومي وأبي الطيب ومن شاكلهما ، هؤلاء المطبوعون . فأما المتصنعون فقد اجل الحديث عنهم الى مبحث اخر هو مبحث المطبوع والمصنوع . ومن استقرائه لاقوال الادباء والنقاد نقل لنا ابن رشيق رأيه في ان أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ثم ينقل اقوالهم وتشبيهاتهم للالفاظ والمعاني التي كثيرا ماشبهوهما بالاوعية والقوالب او الصور والكسرة .. الخ مما مشهور متداول .

وحين يختم ابن رشيق هذا الباب يضيف حدا اخر للشعر يتمثل في رأيه في مهمة الشاعر او صفة الشعر بصورة عامة وهي ان يكون مؤثرا في النفوس معبرا عنها معطيا الالفاظ والمعاني حقهما من الجمال والرقة مما يمنح الاشعار سمة خاصة تميزها عن الكتابة والترسل فللشعراء (الفاظ معروفة وامثلة معروفة لا ينبغي للشاعر ان يعددها ولا ان يستعمل غيرها كما ان الكتاب اصطلحوا على الفاظ باعيانها سموها الكتابية لا يتجاوز وزنها الى سواها الا ان يريد شاعر ان يتظرف كما فعل الاعشى قديما وابو نؤاس حديثا والفلسفة وجر الاخبار باب آخر غير الشعر فأن وقع فيه شيء منهما فبقدر ولا يجب ان يجعلا صب العين فيكونا متكئا واستراحة .. ثم يجمل رأيه بقوله «وانما الشعر ما اطرب وهز النفوس وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبني عليه لا سواه)(٣٩)

ثم ينقل قولا اخر الثعالبي يقول فيه (البليغ من يحرك الكلام على حسب الاماني ويخيط الالفاظ على قدود المعاني) .

دوافعه

تحدث ابن رشيق عن دوافع قول الشعر في احد الابواب التي دافع فيها عن الشعر وهو باب من رفعه الشعر ومن وضعه . فيرى ان المقولة السائدة بين الادباء هي ان الشعر (يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثل مايضع من قدر الشريف الكامل . وانه اسنى مروءة الدنيء وادنى مروءة السري)(٤٠)

ويرى ابن رشيق ان هذه المقولة قد توهم الناس في فهمها فظنوها مثابة وهي منقبة وذلك ان الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل اذا مدح به مثلما يضع من قدر الشريف اذا اتخذه مكسبا كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان ابن المنذر وتكسبه عنده بالشعر وقد كان من اشرف بني ذبيان .

الشاعر والمديح

وعلى هذا يرى ابن رشيق ان التكسب بالشعر يحط من مكانة الشاعر الكبيرة التي اهلته لأن يرفع اقواما اذا شاء مديحهم وتخليدهم فاما ان يمدح من لا يستحق

---

(٣٩) نفسه ١ / ١٢٨

(٤٠) نفسه ١ / ٤٠

المدح للتكسب فقط فهو حط لا للشعر وانما لمكانة الشاعر نفسه . ومن هنا ينظر الى الاشعار من حيث دوافعها ولهذا جعل ابن رشيق من آداب الشاعر وصفاته ان يكون شريف النفس لطيف الحس عرزون الهمة(٤١) لانه مأخوذ بكل علم مطلوب لكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ماحمل من نحو ولغة وفقه وخبر وحساب وفريضة واحتياج أكثر هذه العلوم الى شهادته وهو مكتف بذاته مستغن عن سواه .(٤٢)

الاشعار الجيدة هي التي تصدر عن رغبة حقيقية في نفس الشاعر فمن صنع الشعر فصاحة ولسانا وافتخاراً بنفسه وحسبه . وتخليدا لمآثر قومه . ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ولا مدحا ولا هجاء فلا نقص عليه في ذلك بل هو زائد في ادبه وشهادة بفضله ويطبق هذه الفكرة من خلال الشواهد الشعرية القديمة . فأمروء القيس انما فضل على غيره لانه شاعر مطبوع علا بسجيته عن غير طمع ولا جزع . ويورد رواية تفضيل الامام علي (ع) لهذا الشاعر ووصفه له بأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة وانه احسنهم نادرة . وابيقهم بادرة .(٤٣)

وفضل ابن رشيق في هذا انه اورد الرأي ـ وان لم يكن جديدا ـ وحشد له الشواهد والامثلة التي توضحه وتجعله متبنيا له مدافعا عنه فقد تمثل بقول علي بن الجهم الذي ربأ بنفسه ان يستظل بالشعر تكسبا وزلفى حين خاطب الخليفة بقوله مفتخرا :

وما الشعر مما استظل بظله
ولا زادني قدرا ولاحط من قدري

ثم قال :

ولكن احسان الخليفة جعفر
دعاني الى ما قلت فيه من الشعر

فذكر انه لايستظل بظل الشعر . اي لايتكسب به . وانه لم يزده قدراً لانه كان نابه الذكر قبل عمل الشعر . ثم قال (ولاحط من قدري) فأحسن الاعتذار

---

(٤١) نفسه ١ / ١٩٦
(٤٢) نفسه ١ / ١٩٦
(٤٣) نفسه ١ / ٤١

لنفسه وللشعر . يقول ليس الشعرُ ضعة في نفسه ولا ضعة فيمن دون الخليفة وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بأزاء الخليفة بل مكافئا له بنفسه على احسان بدأه الخليفة به . ولم يرضَ ان يجعل نفسه راغباً ولا مجتديا(٤٤) . فاذا كان دافع الشعر في المديح بسبب الرغبة في رد المعروف او تسجيل مأثره في ذلك لاينقص من قدر الشاعر .

الشاعر والخوف :

وقد يقول الشاعر وهو في حالة خوف شديد فيجيد التعبير عن حاله او العكس ومن الشعراء من يجيد في حالتي الامن والخوف وسكون جأشه وكان دافعه الى القول هو اثبات حالة الاصرار التي يعيشها . وابراز قوة عزيمته فيجيد القول قدر انبعاثه عن رغبة في الفخر واثبات الذات في الموقف المهول او المحرج كقول مرة بن محكان السعدي اذ يقول وقد امر مصعب بن الزبير رجلا من بني اسد بقتله ،

بني اسد إن تقتلوني تحاربوا
تميما اذا الحرب العوان اشمعلت
ولست ـ وان كانت الي حبيبة ـ
بباك على الدنيا اذا ما تولت

ويقول ابن رشيق معلقا ، (وهذا شعر لو روى فيه صاحبه حولا كاملا على آمن ودعة وفرط شهوة او شدة حمية لما اتى فوق ذلك)(٤٥) . وكذلك عبد يغوث بن صلاه اذ يقول في كلمة طويلة ،

اقول وقد شدوا لساني بنسعة
امعشر تميم اطلقوا من لسانيا
فيا راكبا اما عرضت فبلغن
نداماي من نجران ان لاتلاقيا

---

(٤٤) نفسه ١/ ٤٢
(٤٥) نفسه ١/ ٣٩٢

وكانوا قد شدوا لسانه خوفا من الهجاء فعاهدهم فاطلقوه لينوح على نفسه فصنع هذه القصيدة وعرض عليهم فداءه الف ناقة فأبوا الا قتله فقال.

فأن تقتلوني تقتلوني بخيركم
وان تطلقوني تحريوني بماليا

وعلق ابن رشيق على الخبر والابيات (وهذه شهامة عظيمة وشدة)(٤٦)

وقد يكون دافع القول واجادته في حالة الرهبة شديداً لا لاثبات الذات كما مر وانما لاستعطاف السلطان وصاحب الشأن فتكون اجادته من قوة الدافع ورهبة الموقف فمن وجد نفسه عند احاطة الموت به تميم بن جميل فأنه القائل بين يدي المعتصم وقد قدم السيف والنطع لقتله ،

ارى الموت بين النطع والسيف كامنا
يلاحظني من حيث ما اتلفت
واكبر ظني انك اليوم قاتلي
واي امرؤ مما قضى الله يفلت
وما حزني اني اموت وانني
لاعلم ان الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت

الى اخر ابيات القصيدة فعفا عنه المعتصم .(٤٧)

الشاعر والفقر والغنى.

ويرى ابن رشيق ان للحالة المادية من فقر وغنى اثراً كبيراً في تقوية الدافع النفسي وبعث الحافز على قول الشعر لما يتركه الغنى والفقر من اثر في نفسية الشاعر ورغبته الانصراف الى الاشعار او تنقيحها ، (والفقر آفة الشعر . وانما ذلك لان الشاعر اذا صنع القصيدة وهو في غنى وسعة نقحها . وانعم النظر فيها على مهل . فاذا

---

(٤٦) نفسه ١/ ١٩٣
(٤٧) نفسه ١/ ١٩٥

كان مع ذلك طمع غنى قوي انبعاثها من ينبوعها وجاءت الرغبة بها في نهايتها محكمة) . واذا كان فقيراً مضطرا رضي بعفو كلامة واخذ ما امكنه من نتيجة خاطرة . ولم يتسع في بلوغ مراده . ولا بلوغ مجهود نيته لما يحفزه من الحاجة والضرورة فجاء دون عادته في سائر اشعاره وربما قصّر عن من هو دونه بكثير . ومنهم من تحمي الحاجة خاطره او تبعث قريحته فيجود فاذا اوسع أنف . وصعب عليه عمل الابيات اليسيرة فضلا عن الكثيرة . وللعادة في هذه الاشياء فعل عظيم وهي طبيعة خاصة كما قيل)(٤٨) .

لقد قال ابن رشيق قوله هذا في معرض حديثه عن الحالات النفسية التي تعين الشاعر على بعث القريحة وانثيال المعاني والافكار ذاكراً رأى بعض اهل الادب من ان حسب الشاعر عون على صناعته ان يجمع خاطره بعد ان يخلي قلبه من فضول الاشغال او يدع الامتلاء في الطعام والشراب ثم يأخذ فيما يريد . وان افضل ما استعان به الشاعر فضل غنى او فرط طمع . أما رأيه في تجنب الافراط في الشراب او الطعام لاصطياد ساعة النشاط الفكري فنرى انه رأى صحيح ـ الى حد ما ـ لانه يؤدي الى الخمول الجسمي ومن ثم الفكري وانى للشاعر ان ينشط لنظم الاشعار اذا افرط في طعامه وخمل جسمه وفكره ؟ ؟ الا ان ابن رشيق اصدر حكما عاما متجنبا بعد هذه الملاحظة وهي ان الشاعر اذا كان فقيراً يكون مشغولا بأمره ومعاناته من الحرمان او ربما في التفكير بلقمة العيش فلا يرغب في اعادة النظر في القصيدة وتنقيحها بينما يتسع وقته ومزاجه اذا كان ذا غنى فينعم النظر في اشعاره على مهل الا اذا رغب في عطاء او منحة فأن الحافز ينبعث في نفسه من جهة اخرى وهو الرغبة في تجويد القصيدة للحصول على جاه او مال . ويصدر ابن رشيق هذا الحكم ويجعله عاما بينما قد يصلح حكمه على قصائد المديح فحسب والا فأن الفقر ذاته قد يكون حافزا قويا للتعبير عن حالة قهر مستمر او تصوير لحظات حرمان وفقر لاتتيسر لغيره ممن لم يعانوا من شظف العيش او الفقر والشواهد كثيرة في هذا المجال في شعرنا العربي القديم .

ونظرة ابن رشيق هذه ـ التي تخص حافز القول في المديح ـ يكملها رأى اخر وهو ان مثل هذا الشاعر اذا حصل على غنى أنف . وكأن موكده لقول الشعر هو الحصول على الغنى فحسب فاذا ناله انف من المديح والقول .

---

(٤٨) نفسه ١ / ٢١٥

شحذ القريحة :

لقد مرينا ان ابن قتيبة قد عرض الى الحالات التي تقوى الشاعر وتعينه على نظم الاشعار واشار الى بعض مايشحذ القريحة **أو يهيىء الجو النفسي لها** .(٤٩)

وقد فصل ابن رشيق هذه المسألة في باب عقده بأسم (عمل الشعر وشحذ القريحة له) فرأى ان لابد للشاعر ـ وان كان فحلا حاذقا مبرزا مقدما ـ من فترة تعرض له في بعض الاوقات إما لشغل يسير او موت قريحة او نبو طبع في تلك الساعة او ذلك الحين(٥٠) فاذا أحس الشاعر ان نشاطه قد تباطأ فلابد ان يرجىء نظم الشعر الى **فترة اخرى ينشط فيها** ويشحذ ذهنه . وقد طبق هذا على ماعرف من اصحاب الحوليات فهو يرى ان زهيراً كان يصنع حولياته (على وجه التنقيح والتثقيف . يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعيب بعد ان يكون قد فرغ من عملها في ساعة أوليلة وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك)(٥١)

ان تباطوء الشاعر في نظم اشعاره احيانا او نضوب قريحته في فترات معينةظاهرة ايجابية وليست حالة مرضية . لان الشاعر (تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا . وتنزف مادته . وتنفذ معانيه فاذا اجم طبعه اياما . وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل ابدة . وانهمر في كل قافية شاردة وانفتح له في المعاني والالفاظ ما لورامه من قبل لاستغلق عليه)(٥٢)

وهناك امثلة كثيرة لشعراء عانوا من لحظات الابداع وعسر القول وجموح الشعر بعيدا عنهم . فقد كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول ، تمر علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر . فاذا تمادى ذلك على الشاعر قيل اصفى وافصى كما يقال افصت الدجاجة اذا انقطع بيضها(٥٣) وجرير ايضا روى عنه انه حين سمع قول الفرزدق ،

---

(٤٩) الشعر والشعراء والفصل الخاص بابن قتيبة

(٥٠) العمدة ١ / ٢٠٢

(٥١) ١ / ١٣٩

(٥٢) العمدة ١ / ٢٠٦

(٥٣) نفسه ١ / ٢٠٤

فأني انا الموت الذي هو ذاهب

بنفسك فأنظر كيف انت تحاوله

وانه حلف بالطلاق ان جريراً لايغلبه فيه فكان جرير يتمرغ في الرمضاء ويقول ، انا ابو حرزة حتى قال :

انا الدهر يفنى الموت والدهر خالد

فجئني بمثل الدهر شيا يطاوله(٥٤)

فمعاناة جرير هنا وصلت حد التمرغ في شدة الحر ليغلب الفرزدق في معنى اراده .

اما ابو تمام فقد ذكر بعض اصحابه انه دخل عليه فوجده في بيت مصهرج قد غسل بالماء يتقلب يمينا وشمالاً فقال له ، بلغ بك الحر مبلغا شديدا .. قال ، لا ، ولكن غيره . ومكث ساعة ثم قال كأنما اطلق من عقال فقال ، الان .. وكأن سبب معاناته انه اراد ان ينظم معنى ورد في شعر ابي نؤاس فكان يعانى معاناة شديدة الى ان بلغ مايريد(٥٥) .

اما الحالات التي تعين الشاعر على شحذ القريحة فهي مختلفة متباينة لايمكن ان يسجل الناقد لها حالة واحدة او يقدم وصفة جاهزة . فما يصلح لهذا الشاعر في وقت او مكان لايصلح لـه او لاخـر في حالة اخرى . فيقول ابن رشيق في هذا ، (ثم ان للناس فيما يعد ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام . وتسهل طريق المعنى كل امرىء على تركيب طبعه واطراد عادته)(٥٦) .

واذا حاولنا ان نحصي الحالات التي تعين الشاعر على شحذ قريحته والتي سجلها ابن رشيق من خلال الاخبار الكثيرة التي أوردها استطعنا حصرها فيما يلي ، ـ

١ . المذاكرة ، فهي التي تقدح زناد وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفطنة وينقل ابن رشيق في هذا قولا لبكر بن النطاح يشبه فيه الشعر بعين الماء (اما

---

(٥٤) نفسه ٢٠٩/١

(٥٥) نفسه ٢٠٩/١

(٥٦) نفسه ٢٠٩/١

تركتها اندفنت هتنت(٥٧) وليس مراد بكر ان تستهين بالعمل وحده لاننا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفذ معانيه فاذا أجم طبعه اياما ورما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل أبدة . لكن المذاكرة مرة فانها تقدح زناد المخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفطنة . وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الجد وتولد الشهوة)(٥٨)

٢ . مطالعة الاشعار ، وهي جزء من الفقرة السابقة التي فصل ابن رشيق فيها القول والتي اولاها النقاد مثله عناية كبيرة بما اسماه ابن طباطبا مثلا تهذيب الطبع لان مطالعة الاشعار وادامة النظر فيها توحي للشاعر بتوليد المعاني فضلا عن تثقيفه وتمرين موهبته وصقلها .

٣ . الخلوة بذكر الاحباب ، وهذا يصلح في اثارة داعي قول الشعر في الغزل . فقد سئل ذو الرمة : كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال كيف ينقفل وعندي مفاتيحه ؟ قيل له : عنه سألناك ماهو ؟ قال : الخلوة بذكر الاحباب ويعلق ابن رشيق على هذه الرواية مؤيداً ذا الرمة من جانب واحد وهو ان الشاعر اذا انفتح له نسيب القصيدة . فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب(٥٩) . ولكن هذه الحالة لاتصلح لغرضي المديح والهجاء . وابن رشيق يؤكد ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اضعان وهو الذي اخرجه من الفحول .(٦٠)

٤ . الاستعانة بجمال الطبيعة لتفتح الذهن ولتبعث القريحة فقد قيل لكثير ، كيف تصنع اذا عسر عليك الشعر ؟ قال : اطوف في الرباع المحيلة والرياض المعشبة فيسهل على ارضه ويسرع الي احسنه .(٦١)

ومن الطبيعي ان يكون ابتعاد الشاعر عن الناس والطواف والرحلة سببا في الخلوة مع نفسه ايضا ليستجمع ذهنه وينشط افكاره ومعانيه وقد روى عن الفرزدق انه كان اذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته وطاف خاليا منفردا في شعاب الجبال وبطون الاودية والاماكن فيعطيه الكلام قياده وحكى ذلك عن نفسه في قصيدته :

عزفت باعشاش وما كدت تعزف(٦٢)

---

(٥٧) هتنت من التهتان وهو مطر ساعة ثم يقتر ويعود
(٥٨) العمدة ١ / ٢٠٦
(٥٩) العمدة ١ / ٢٠٦
(٦٠) نفسه ١ / ٢٠٦
(٦١) نفسه
(٦٢) نفسه

وذكر ان فتى من الامصار بحضرة كثير او غيره فاخره بابيات حسان بن ثابت ،

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

وانظرهُ سنة فمضى حنقا وطالت ليلته ولم يصنع شيئا فلما كان قريب الصباح اتى جبلا بالمدينة يقال له ذباب فنادى ، اخاكم يابني لبينى ، صاحبكم . صاحبكم . صاحبكم . وتوسد ذراع ناقته فانثالت عليه القوافي انثيالا وجاء بالقصيدة بكرة وقد اعجزت الشعراء وبهرتهم طولا وحسنا وجودة نفس .(٦٣)

واذا كان ظاهر الخبر يدل على ان الشاعر خرج يستغيث بشياطين الشعر لينجدوه ويعينوه على القول وكان له ماراد فأن واقع الحال يبين انفراده مع نفسه وخروجه من المدينة الى الجبل يسر له فرصة الخلوة واستجماع الافكار والتأمل فكان له ان صنع القصيدة الجيدة بسبب توفر هذا الظرف .

وقد قال الاصمعي في هذا (ما استدعى شارد بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخالي . وقيل والمكان العالي يعني الرياض)(٦٤) . وهذا القول يحمل اكثر من دافع لشحذ القريحة اولها ما يبعثه الماء الجاري من راحة نفسية . قد تبعث في نفس الشاعر الرغبة في قول الشعر . وثانيها وضع الشاعر الاجتماعي ومكانته . فاذا كان شريفا فأن انبعاثه الى قول الشعر يكون عن دافع شخصي قوي اقوى مما يدفع شاعراً اخر من رغبة في طلب الشهرة او العز او المال .. واما الثالثة التي ذكرها الاصمعي فهي الخلوة وهذا مايفهم من الشرف العالي اذا اريد به المكان العالي المشرف على الرياض المعشبة والذي يهيىء الجو النفسي للخلوة من جهة وامتاع النظرمن جهة اخرى . ويؤيد هذا ماذكره ابن رشيق من ان بعض اصحابه بالمهدية حدثه قائلا ، (وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو اشرفها ايضا وهواء قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم(٦٥) على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا فقلت يا ابا محمد . قال ، تكلم ، قلت ، ماتصنع ههنا ؟ قال ، القح خاطري . واجلو ناظري . قلت فهل نتج لك شيء ؟ قال ، ماتقر به عيني وعينك ان شاء الله

---

(٦٣) العمدة ١ / ٢٠٧

(٦٤) نفسه ١ / ٢٠٦

(٦٥) يعني عبد الكريم النهشلي صاحب كتاب الممتع واستاذ ابن رشيق

وانشدني شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت ، هذا اختيار منك اخترعته قال ، بل برأي الاصمعي .(٦٦)

٥ . اختيار وقت الليل او وقت السحر للانصراف الى نظم الاشعار وقد بدأه ابن رشيق بنقل رأي ابن قتيبة في هذا حين ذكر الاوقات التي تستدعي قول الشعر منها اول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ومنها يوم شراب الدواء ومنها الخلوة في الحب والمسير ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ورسائل المترسل(٦٧)

فأما اختيار الليل فيذكر له ابن رشيق شاهدا من سيرة جرير واخباره فقد قيل انه اذا اراد ان يؤبد(٦٨) قصيدة صنعها ليلا . يشعل سراجه ويعتزل وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة منه في الخلوة بنفسه يحكي انه صنع ذلك في قصيدته التي اخزى بها بني نمير(٦٩)

ولكن ابن رشيق نفسه يختار وقت السحر . ويفصل القول في بيان رأيه او ربما تجربته الشعرية بالذات (فليس يفتح مقفل نجار لخواطر مثل مباكرة العمل بالاسحار عند الهبوب من النوم .(٧٠)

ثم يذكر عدة اسباب لتفضيله هذا الوقت منها ،

أ . ان النفس تكون مجتمعة لم يتفرق حسها في اسباب اللهو والمعيشة او غير ذلك مما يعيبها .

ب . ان النفس مستريحة وكأنها انشأت نشأة اولى .

جـ . ان السحر الطف هواء وارق نسيما واعدل ميزانا بين الليل والنهار وانما لم يكن العشي كالسحر ـ وهو عديله في التوسط بين طرفي الليل والنهار لدخول الظلمة فيه على الضياء بضد دخول الضياء في السحر على الظلمة ولأن

---

(٦٦) العمدة ١ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧

(٦٧) نقل ابن رشيق النص بشيء من التصرف يراجع في الشعر والشعراء ١ / ٣٥

(٦٨) يؤبد ـ ينظم قصيدة تؤبده اي تخلده وتبقى بعده .

(٦٩) العمدة ١ / ٢٠٧ يعني قصيدته التي يقول فيها ،

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(٧٠) نفسه

النفس كحالة مريضة من تعب النهار وتصرفها فيه ومحتاجة الى قوتها من النوم متسوقة نحوه . فالسحر احسن لمن اراد ان يصنع واما لمن اراد الحفظ والدراسة وما اشبه ذلك فالليل،قال الله تعالى وهو اصدق القائلين (ان ناشئة الليل هي اشد وطآة واقوم قيلا) .

وهذا الكلام الذي لامطعن فيه ولا اعتراض عليه وعلى قراءة من قرأ (وطاء) يكون معناه اثقل على فاعله . واذا كان كذلك كان اكثر اجرا .

فهذا يشهد لنا ان العمل اول الليل يصعب لان النوم يغلب والجسم يكل .(٣١)

٦ . تهيئة النفس بدواع خارجية لبعث الرغبة فيها فـي قـول الشـعر حسـب مزاج الشاعر وعادته وديدنه في الحياة كما كان يفعل ابو نؤاس حين سئل ، كيف عملك حين تريد ان تصنع الشعر ؟ قال ، اشرب حتى اذا كنت اطيب ما اكون نفسا بين الصاحي والسكران صنعت وقد داخلني النشاط وهزتني الاريحية .

وقد روى ابن رشيق في هذا خبرا عن ايام معارضة قريش للدعوة الاسلامية وانها لما ارادت معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك على لباب البر(٣٢) وسلاف الخمر ولحوم الضأن . والخلوة الى ان بلغوا مجهودهم فلما سمعوا قول الله عز وجل(وقيل يارض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر . واستوت على الجودي وقيل بعد للقوم الظالمين)(٣٣) يئسوا مما طمعوا فيه . وعلموا بانه ليس بكلام مخلوق)(٣٤)

٧ . التغني والترنم بالبيت الذي يخطر ببال الشاعر او البيت الذي يريد ان يقيم القصيدة عليه فقد قيل (مقود الشعر الغناء به . وذكر عن أبي الطيب ان متشرفا تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التي اولها (جللا لما بي فليك التبريح) وهو يتغنى وينصع فاذا توقف بعض التوقف رجع الى الانشاد من اول القصيدة الى حيث انتهى منها(٣٥) الواقع ان هذا الرأي ليس جديداً او وليد عصر ابن رشيق فقد ارتبط ببيت حسان بن ثابت المشهور ،

تغن بالشعر اما كنت قائله

ان الغناء لهذا الشعر مضمار

---

(٣١) نفسه ١ / ٢٠٨

(٣٢) اللباب الخالص ، والبر القمح ، والسلاف مايسال من عصير العنب

(٣٣) من سورة هود / ٤٤

(٣٤) العمدة ١ / ٢١١

(٣٥) العمدة ١ / ٢١٢

وقد ذكره المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة تعليقا على مقاييس عمود الشعر العربي التي فصل فيها القول .(٣٦)

ثم نقل ابن رشيق اقوالا عديدة لادباء وشعراء اوصوا باوقات او حالات معينة اعانتهم على قول الشعر وبعثت القريحة منطلقين من تجاربهم الشخصية او ماسمعوه من تجارب الاخرين . وقد تكون هذه الوصايا او الاقوال متداخلة جامعة اكثر من حالة او ظاهرة كقول بعضهم : من اراد ان يقول فليعشق . فأنه يرق . وليرو فأنه يدل . وليطمع فأنه يصنع . وقالوا الحيلة لكلال القريحة انتظار الحمام وتصيد ساعات النشاط .(٣٧)

وقد صرح ابن رشيق عقب نقله لهذه الاقوال ـ بأن انجح الاقوال عنده واحسنها مما يقول به ويذهب اليه في تجاربه الشخصية هو القول الاخير (تصيد ساعات النشاط) وبذا يؤكد مابدا به من حديث بشأن اختلاف الناس في الوسائل التي يستدعون بها ويشحذون بها قرائحهم باختلاف طباعهم وميولهم(٣٨) . ولذلك ختم هذا المبحث بتفضيله للرأي القائل بأن على الاديب اختيار الوقت الملائم لنشاطه الذهبي دون ان يحدده بحالة او وضعية معينة وان رجح خلال المباحث تفضيله لبعض الحالات او الاوقات . الا ان المسألة تبقى عنده رهينة طبع الاديب او ظروفه وعليه وحده ان يختار الظرف المعين لنشاطه .

---

(٣٦) يراجع مقدمة ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧

(٣٧) نفسه

(٣٨) نفسه ١/ ٢٠٥